عيد الميلاد بمصر

في زمانه القديم

روى ابن المأمون في تاريخه والمسعودي في كتابه مروج الذهب وصاحب الخطط في خططه ان الاقباط يزعمون ان سيدنا عيسى المسيح ابن مريم عليهما السلام ولد في اليوم التاسع والعشرين من شهر كيهك وكانوا يحيون ليلته بتزيين الكنائس فقط

فلما آل ملك مصر الى الخلفاء الفاطميين في سنة ٩٦٨ م جعلوها مستقراً لهم وحملوا اليها أموالهم وكنوزهم بل رفات موتاهم التي أحضروها معهم من القيروان عاصمة ملكهم الاصلي في بلاد المغرب ودفنوها في تربة الزعفران حيث خان الخليلي الآن وهي الدولة الوحيدة التي جاءت باموالها الى مصر خلافاً لغيرها من الدول الفاتحة فانها كانت تنزح خيرات مصر الى بلادها

ولا أقرب الى ذهنك شيئا من عظمة هذه الاموال والكنوز أقول ان ماجلبه الفاطميون معهم من نوع الذهب الخالص فقط سبائك على شكل الرحى التي تطحن عليها الحبوب محمولة على خمسمئة بغل فتأمل

ولم يكتف الخلفاء الفاطميون بدر هذه الخيرات على مصر بل عطفوا على عناصر الامة المصرية على اختلافها ومنهم القبط فقربوهم اليهم وجعلوا اعيادهم اعياداً رسمية في البلاد اشترك فيها الخلفاء أنفسهم كأعياد النيروز والميلاد والغطاس والشهيد وخميس العهد الخ وكانوا يخرجون من خزائنهم العطايا والتحف والشمع ويوزعونها على رجال الدولة لافرق بين مسلم وقبطي

فكان اذا حل اليوم التاسع والعشرون من شهر كيهك وهو يوم عيد الميلاد المصطلح عليه عند القبط تفرق من الخزانات الفاطمية على ارباب الرسوم من الاستاذين المحنكين وهم رجال البلاط والامراء المطوقين وسائر الموالي من الكتاب وغيرهم على اختلاف مناصبهم ومذاهبهم الجامات المملوءة من الحلاوة القاهرية التي كانت تصنع في مطابخ السكر بمصر القديمة والمتارد التي فيها السميذ وقرايات الجلاب وهي

طاسات من البلور يوضع فيها السكر الاحمر وطناجير انزلابية وكانت تعمل في دار الفطرة قبلي المشهد الحسيني الآن وطواجن السمك المعروف بالبوري وكانت تخرج من المطابخ الفاطمية ومكانها الآن سوق الصاغة

ومن رسم النصارى في هذا العيد انهم كانوا يزينون الكنائس بالشمع وجميع أنواع الزينات وكانوا يلعبون بالنار وكان عيداً عاماً وموسماً جليلا في القاهرة والفسطاط وجميع بلاد القطر يباع فيه من الشموع المزهرة بالاصباغ المليحة والتماثيل البديعة باموال لا تحصر . فلا يبقى أحد من الناس أعلاهم وأدناهم الا وقد اشترى من ذلك لاولاده وأهله وكانوا يسمونها الفوانيس واحدها فانوس ويعلقون منها في الاسواق والدكاكين شيئاً يخرج عن الحد في الكثرة والملاحة وكنت ترى الناس يتضون ليلتهم مارين في تلك الاسواق يشاهدون ما فيها من الطرف والتحف المزينة بها الحوانيت ويشترون منها ما يشاءون كما تراهم الآن في ليلة عيد الميلاد عند الافرنج وهي ليلة ٢٥ ديسمبر من كل عام وقد زينت مخازنهم بالانوار ولعب الصغار

ومن شدة شغف الناس بتلك الفوانيس كنت ترى الفقراء في الازقة والشوارع يطلبون من الله تعالى أن يرزق الواحد منهم بفانوس وكان أهل الخير من المحسنين يتصدقون عليهم اما بفوانيس أو بدراهم يشترونها بها وكان الفانوس الواحد من صغار هذه الفوانيس يشترى بما يبلغ ثمنه درهما او ما حوله

ولما جعل المسلمون ليالي شهر رمضان كلها أعياداً صاروا يستعملون فيها هذه الفوانيس واستعاروا رسمها من الشمع الى ذلك الشكل الهرمي المصنوع من الزجاج والصفيح وسموه فانوساً

وقد تبارى الناس وتنافسوا في المغالاة في اثمان الشموع التي كانوا يسمونها الفوانيس فروى المقريزي رحمه الله انه رأى بعينه شمعة عملت في ليلة عيد الميلاد بلغ مصروفها ما يزيد على سبعين مثقالا من الذهب

فاذا باهى الافرنج بالشجرة التي يزينونها في ليلة عيد الميلاد عندهم فلمصر ان تفتخر ايضاً بتلك الشمعة التي رآها المقريزي في عيد الميلاد عندنا

ثم لما اختلت امور مصر في اوائل القرن التاسع من الهجرة كان من جملة ما ابطل

من عوائد الترف في البلاد عمل الفوانيس في الميلاد وعاد القبط الى الاقتصار على تزيين الكنائس في هذا العيد فقط ولو اني اصبحت في يوم ذلك العيد ولم اجد زملائي الاقباط معي في المصلحة كالمعتاد لما شعرت انه كان عيد الميلاد

(المقطم) مصطفى منير أدهم

وكتب حضرته مقالاً آخر عن عيد الغطاس نورده لأهميته وهو :

كان عيد الغطاس في الديار المصرية عيداً رسمياً يشترك فيه حاكم البلاد وهو من مواسم النصارى ويقع في اليوم الحادي عشر من شهر طوبة وأصله عندهم أن يحيى بن زكريا عليه السلام والمعروف عند النصارى بيوحنا المعمدان عمد المسيح في نهر الاردن (وهو نهر الشريعة) أي غسله ولما خرج المسيح عليه السلام من الماء اتصل به روح القدس فصارت النصارى لذلك تغطس أولادها في الماء في هذا اليوم

وكان لليلة الغطاس في مصر شأن عظيم أيام الدولة الاخشيدية على ما رواه المسعودي وكان الناس مسلمون أو نصارى لا ينامون في هذه الليلة بل يسهرون في أنس وانشراح حتى الصباح وقد حضرها المسعودي في سنة ٣٣٠ هـ والبلاد في قبضة الاخشيد محمد بن طغيج وكان الاخشيد في قصره الواقع في بستانه الشهير المعروف بالمختار في جزيرة منيل الروضة حيث سراي المانسترلي واراضي شركة تقسيم الاراضي الآن

رأى المسعودي بعينه الاخشيد رحمه الله وقد أمر باقامة الزينة في ليلة عيد الغطاس أمام قصره من جهته الشرقية المطلة على فرع النيل المار بين جزيرة الروضة ومصر القديمة فأوقد الف مشعل على جانبي فرع النيل المذكور وذلك غير ما أسرجه أهل الفسطاط من الشمع والمشاعل ورأى الناس وقد حضروا الى النيل في تلك الليلة بما يقدر بمئات الالوف بين مسلمين ونصارى ومنهم من احتفلوا في الزوارق السابحة في النيل ومنهم من جعلوا حفلاتهم في البيوت المشرفة على النيل ومنهم من اقاموا الصواوين على الشطوط لا يتناكرون كل ما يمكنهم اظهاره من المآكل والمشارب واخراج اواني

الذهب والفضة ويقضون ليلتهم في الملاهي واللهو والعزف على آلات الطرب والتحلي بالجواهر والتجمل بجميع اسباب الزينة

وبالجملة كانت ليلة عيد الغطاس في أيام دولة بني الاخشيد أحسن الليالي بمصر وأشملها سروراً ولا تغلق البوابات التي كانت مركبة على أفواه الدروب والخارات بل تبقى مفتوحة الى الصباح ويغطس أكثر الناس في النيل ويزعمون ان ذلك أمان لهم من الامراض ومناعة لاجسامهم من انتشار العلل

ولما انتزع الفاطميون الملك من أيدي الاخشيديين حافظوا على احترام هذا العيد وزادوا في الانعام فيه على رجال الدولة العسكريين والملكيين فكان يفرق من الخزانات الفاطمية على أرباب السيوف والاقلام وغيرهم من سائر أهل الدولة يوم عيد الغطاس الاترج وهو ما نسميه الترنج الآن وكانت الواحدة منها في حجم البطيخة والنارنج والليمون المراكبي الذي كان يسمى البلسم وكان بيضاوي الشكل وحلو جداً واطنان القصب المعروفة بالبشات قصب السكر الآن والسمك وأخصه النوع المسمى بالبوري وكان ذلك برسوم مقررة لكل شخص بحسب مرتبه على ما رواه ابن المأمون في تاريخه

واذا رأينا اقبال الناس على مص القصب في هذه الليلة واعتباره من الضروريات فهي عادة قديمة جداً أدخلها الفاطميون في رسوم دولتهم

أما هيئة الاحتفال بعيد الغطاس في ايام الدولة الفاطمية فكانت اذا جاءت ليلته ضربت الخيام (الصواوين) في عدة مواضع على شاطيء النيل ويأتي الخليفة ومعه الحرم من قصره الى مصر القديمة وينزل في قصر العزيز بالله نذار بن المعز لدين الله الفاطمي على ساحل النيل ويضرب متولي الشرطتين وهو محافظ القاهرة والفسطاط خيمته عند جسر النيل ويجلس فيها وتوقد المشاعل والانوار في البر والبحر وترى أشعتها وقد اخترقت كبد السماء وصعدت الى الجو فزينت السماء ثم تنصب لرؤساء النصارى الاسرة على شاطيء النيل في صواوينهم وتوقد لهم الشموع والمشاعل ويجلس الرئيس ومعه اهله وبين يديه المغنون والملهون ثم تجيء القساوسة والرهبان بالصلبان والشموع والمباخر وقد اوقدوا فيها النار ووضعوا بها البخور ويقيمون قداساً طويلاً

بين الزينات والانوار الكثيرة الآخذة بالابصار حتى اذا كان وقت الغطاس وانتهى القداس نادى المنادي في الناس ان لا يختلط المسلمون مع النصارى عند النزول الى البحر وما يكاد المنادي ينتهي من ندائه الا وترى الناس يلقون بانفسهم في النيل لا فرق بين مسلم ونصراني ويغطسون في الماء ثم ينصرفون وبذلك ينقضي العيد

ومن الذين ذكرهم المسيحي في كتابه من الاقباط الذين احتفلوا بعيد الغطاس في سنة ٣٨٨ هجرية الرئيس فهد بن ابراهيم النصراني كاتب الاستاذ برجوان استاذ الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي وهو الذي تنسب اليه حارة برجوان في القاهرة الآن حيث نصبت له ولاهله الاسرة واقيمت حولها الزينات على شاطيء النيل الى ان كان وقت الغطاس فغطس وانصرف على الهيئة التي ذكرناها

وذكر من الخلفاء الذين حضروا هذا العيد في سنة ٤١٥ هـ امير المؤمنين الظاهر لاعزاز دين الله ابن الخليفة الحاكم فقد نزل مع الحرم الى قصر جده العزيز المتقدم ذكره على شاطيء النيل بمصر القديمة وحضر الغطاس وكان متولي الشرطتين سنتئذ بدر الدولة الخادم الاسود وضربت خيمته عند الجسر على جاري العادة وحضر الرهبان والقسيسون ومعهم الصلبان وبين ايديهم الشموع والانوار الكثيرة وأقاموا القداس المطول كعادتهم في هذا العيد ثم نادى المنادي وغطس الناس وتفرقوا وكان عيداً مشهوداً

وقال المسيحي ومن عادة الناس في ذلك الزمان التوسعة على اولادهم واهلهم في ليلة الغطاس فيشترون الفواكه ولحم الضان وغيرها وقد رأيت ذلك جارياً في دار والدي رحمه الله

أما في زماننا الحاضر فلم يبق من عادات عيد الغطاس الا مص القصب وأكل القلقاس وذلك في بعض العائلات القديمة وعند أهل القرى والريف بمصر

وقد صادف عيد الغطاس في عامنا الحاضر ليلة الاسراء عندنا نحن المسلمون فاشتركت البلاد في عيدين سعيدين واشعلت المصابيح في البيع وفوق المنارات وهذا من حسن المصادفات وبشائر الخيرات

مصطفى منير ادهم